* المحاضرة الثّـــامنة : التحليل النفسي و السينما

تمهيد :

إنّ السينما شأنها في ذلك كباقي الفنون لا تخلو من وجود مضامين كثيرة تحمل في طيّاتها صورا مختلفة للمدلولات النفسية مثل اللاّشعور وعقدة أوديب والخصاء وغيرها ، فالتحليل النفسي بعدما كان منصبا على الفن بصفة عامة منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين ، فقد وجد ضالته في الفن السابع كونه جامع لكلّ الفنون وحقل خصب للدراسات السيكولوجية الفنيّة .« والحركة النظرية الكبيرة التي ارتسمت من قبل ، اعتبارا من 1965 ، في سياق البنيويّة أثرت مباشرة في دراسة السينما بإيحائها بأن تدرس (حقا وليس مجازا بعد) كلغة وهذه الحركة هي التي فرضت نفسها فيها " 1

---

(1)- جاك أومون –ميشال ماري : تحليل الأفلام ، ترجمة : أنطون حمصي ، منشورات وزارة الثقافة المؤسسة العامة للسينما – سورية – دمشق 1999 –ص : 224 .

سار التحليل النفسي للفيلم بـالموازاة مع العلوم الألسنيّة وما انبثق عنها مثل البنيوية والتشريحيّة والسيميولوجية وغيرها ، وقد جاءت النظرية السيكولوجية لدراسة العلاقة بين السينما و المتلقي ومدى تأثر الفرد من الناحية النفسية ، إذ يمكن القول أنّ السينما قد ألمّت بالجانب النفسي السيكولوجي للإنسان ، بدراسة المعطيات الشعورية واللاّشعورية والدوافع الأساسية لها ، وكذا ضبط العلاقات التفاعلية بغية إعادة إنتاج العملية النفسية وفق منطق الأفلام واللاّشعور .

" هناك تشابهات وأسس مشتركة تقول بها النظرية التحليلية النفسية بين المشاهد للسينما (أو المتلقي) الحالم ، فهذه النظرية تقول إنّ الإنتاج النماذجي (Archetypal) الخاص بالتخييل اللاّشعوري للعمل الحلمي ، أو الحلم يناظر الفيلم نفسه وإنّ التحقيقات (الإشاعات) الرمزية للأحلام والرغبات اللاّشعورية هي نصوص مركبة يمكن فهمها عن طريق تحليل المحتوى الظاهر Manifest–Content لها (أي القصص التي تحكيها الأفلام) من أجل الكشف عن المحتوى الكامن Latent–Content أو الرغبة الحلمية Dream–Wish أي الرغبة اللاّشعورية والمحرّمة التي تولد الحلم أو تعمل على ظهوره ، التي توجد فيما وراء هذه الصور ، والتي تبدو للوهلة الأولى كما لو كانت مجرد حالة من التجميع العشوائي و المختلط ". 1

إنّ ظاهرة الحلم في التحليل النفسي تجعل من اللاّشعور يعبر عن نفسه ، وفق مجريات التحويل والتشويه لهذا العمل وتسمى بالعمليات الأولية وتشتمل على :

1 -التكثيف: Condensation بواسطة صورة واحدة ، يتم تمثيل المدى الكبير من الصور

---

(1)- شاكر عبد الحميد: التفضيل الجمالي: ص 368.

2- الإحلال: Displacement أو الإبدال، من خلاله تنتقل الطاقة النفسية وتتحول من شيء جوهري إلى شيء كان هامشيا.

3- شروط القابلية للتمثيل : Condition –of– Representability حيث يمكن تجسيد أو تمثيل أفكار معينة بواسطة الصور البصرية .

4- المراجعة الثانوية: Secondary–Revision ومن خلالها يكون ممكنا فرض التماسك المنطقي و السردي على التيار المتدفق للصور. 1

" وخلال حالة النشاط الخاص بالإنتاج اللاّشعوري للحلم ، تشترك هذه العمليات معا لتحويل المواد الخام الخاصة بالحلم (المثيرات الجسمية ، والأشياء التي تحدث في أثناء النهار ، وأفكار الحلم والذكريات) إلى "القصة البصرية " الهلوسية التي هي الحلم ، وتنشأ عملية التماثل بين الفيلم والحلم ، عن ذلك التأكيد ،علما أنّ السينما تقوم بالتكوين الخاص ، أو الإنشاء الخاص لمشاهدها أو المتلقي لها ، وتحويله إلى حالم شبه مستيقظ Semi–wake dremer فالمشاهد للسينما هو مشاهد راغب أو مملوء بالرغبات Desiring وحالة المشاهد التي " تكوّن " هذا المشاهد ، وكذلك نص الفيلم نفسه ، ينظر إليهما باعتبارهما يحركان بنيات التخييل اللاّشعوري ، وتكون السينما هنا – بشكل يفوق أيّ شكل آخر – قادرة على إعادة انتاج أو الاقتراب من بنية ومنطق الأحلام واللاّشعور ." 2

---

(1)- شاكر عبد الحميد ، المرجع السابق: ص 369.

(2)- المرجع نفسه : ص369.

ومن ثمّ فإنّ الإنتاج النفسي قد أوجد التخييل الذي تنبثق منه رغبة لاشعورية عبر الوسائل الخاصة بمشهد متخيّل ومثلما يعبر عنه فرويد فالتخييل هو بمثابة محصّلة العلاقة بين المشاهد والفيلم .

إنّ المتتبع الجيّد للظاهرة السينمائية يدرك تمام الادراك بوجود تماثل واضح بين الفيلم والحلم ، وذلك عن طريق وجود ميكانيزمات آلية تسير وفقها لبلوغ هدف أساسي ألا وهو الشعور بالمتعة ، فالسينما تحاكي الحلم في كيفية إحداث الصورة السينماتوغرافية.

يقول **لويس بونويل:** « إنّ الطريقة الآلية التي تحدث بها الصور السينمائية وبالأسلوب نفسه الذي تسير به ، هي نفسها من بين جميع طرق التعبير الإنساني التي تقترب أكثر ما يمكن من نفس الإنسان ، بل إنّها التي تحاكي ، على أفضل ما تكون المحاكاة ، للطريقة التي تعمل بها النفس في حالة الأحلام ، والفيلم يعدّ بمثابة تقليد غير إرادي للحلم ، ويلفت **بروينوس** نظرنا ، إلى أنّ الليل البطيء الذي يخيّم على قاعة العرض السينمائي ، يعادل حركة إغلاق العينيين ، عند ذلك تبدأ على الشاشة وكذلك داخل الإنسان نفسه ، رحلة في ظلام المجهول ، فتظهر الصور كما تفعل في الأحلام ، ثم تختفي ، تكون مضيئة وقاتمة .

ويصبح الزمان والمكان شيئا مرنا ، فيضيقان ويتسعان كما يراد لهما ، ويصبح التسلسل المنتظم ، والقيمة النسبية للمدة التي تستغرقها ، غير متجاوب مع الواقع..." [1]

ومن هنا يتبين لنا أنّ السينما قد شكلت مقاربة لاواعية ولاشعورية للعملية الحلمية، وأضحت حقلا

---

(1)- روبير لافون جرامون : السينما المعاصرة ، ترجمة : موسى بدوي ، الناشر للطبعة العربية : 1977 شركة تراد كسيم .ص 44 .

خصبا لمعالجة درامية اعتمدت على الأحاسيس الغائرة والحرارة المرتعشة لأسمى معاني الوجدان والأخلاق الرفيعة .

عملية إبداعية ، من خلالها يتم استرجاع ذكريات الطفولة وطغيان الهواجس ،لتحل بذلك – السينما – محلّ أبصارنا عن طريق عالم يطابق رغباتنا .

وفضلا عن ذلك ترى نظريات التحليل النفسي ، أنّ عملية المشاهدة يتم إنتاجها وتنشيطها من خلال الجهاز السينمائي ، باعتبار المشاهد تكوينا مصطنعا ، ليس من لحم ودم ، ولكن باعتباره جزءا من العملية السينمائية التي تشمل صناعة الفيلم وأجهزة العرض وقاعة السينما. وبالتالي أساس العملية الكلية يستند على الأجزاء السابقة الذكر لتكوين موقف المشاهدة.